

## أيها الحكام :

### هل تعون درس الصنم الذي هوى

بقلم : عبد الآخر حماد

بهذا السقوط العبي لتمثال صدام حسين الذي تابعه ملايين البشر على شاشات الفضائيات العالمية يكون قد هوى صنم من أصنام البشر ظل لسنين طوال يمارس ضد شعبه وبني جلدته ألواناً من الظلم والطغيان ، وكان ذلك يتم في أحيان كثيرة بمعونة ممن أسقطوه الآن بدعوى ديكتاتوريته وعدم احترامه لحقوق الإنسان .

ولسنا نقول هذا من باب الشماتة في صدام وحزبه ،فضلاً عن أن يكون ذلك رضاً باحتلال كفري غاشم لديار الإسلام ،فقد كنا بحمد الله ولا زلنا ننادى بوجوب الجهاد ضد أولئك الغزاة المجرمين ، وإنما المقصود من ذلك أن نستخلص من هذا السقوط المفاجئ لنظام عبء رئيسه الناس لرغباته ، وأرهق جيشه وشعبه بمغامراته العسكرية التي كانت دائماً تنتهي بفشل ذريع تحيله أبواق دعايته إلى انتصار عظيم من نحو : أم المعارك ، وقادسية صدام .

كما أننا لسنا بطبيعة الحال نقصد بأخذ الدروس ما يقصده الأمريكان وهم يحدرون سوريا مثلاً بأن عليها أن تتعلم الدرس وإلا أصابها ما أصاب العراق ، ولا ما قصده شارون حين دعا الفلسطينيين أن يعوا جيداً درس العراق ، وإنما نقصد دروساً تتسق مع فهم المنطق القرآني في الحديث عن أحداث التاريخ ووقائع الدهور، والذي تقرر في مثل قوله تعالى : (فاعتبروا يا أولي الأبصار ) [ الحشر : 2] ، وقوله (( وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ) [ الكهف : 59] ، ونحو ذلك من الآيات .

وعلى هذا فإن من أهم ما ينبغي التنبيه عليه تلك الحقيقة الخالدة والتي أوردها القرآن الحكيم من قول موسى عليه السلام مخاطباً سحرة فرعون : (إن الله لا يصلح عمل المفسدين (( [ يونس : 81] ، فقد استطاع صدام حسين أن يجعل من العراق قوة من أكبر القوى العسكرية في العالم ، لكن لفساده لم يصلح الله عمله بل رأيناه يضيع تلك القوة عبر مغامراته

العسكرية الفاشلة التي أشرنا إليها ،وما رأيناها استخدمها ضد أعداء الأمة من الصهاينة في فلسطين المحتلة مثلاً،مع أنه كان قبل دخوله الكويت يهدد بأن عنده سلاحاً كيمياوياً قادراً على تدمير ثلث إسرائيل ،وكانت سفارات العراق توزع كتباً ينقل عن بعض نصوص العهد القديم أن آشورياً سيستخدمه الرب في القضاء على الشعب اليهودي وأنه سيحتل نصف إسرائيل في أول أيامه ،وكان البعض يتأول ذلك الآشوري على أنه صدام حسين ،ويتوقع -في سذاجة- أن يتوجه صدام حسين بجيشه لتحرير فلسطين ،لكنه لم يفعل ،بل توجه إلى الكويت موهماً أولئك السذج أن الطريق إلى القدس يمر عبر الكويت ،ثم لما فشلت مغامرة دخوله الكويت رأيناه يقبل في ذلة كل ما يُملى عليه ،ولقد كنا يومها نعتبر أن مجرد قبوله بتدمير أسلحته والسماح لمفتشين دوليين بالتفتيش على تلك الأسلحة هو شيء في غاية الإذلال،ولكن مع مرور الوقت صار ذلك شيئاً عادياً ،وذلك ما جعله في هذه الأزمة الأخيرة يواصل سياسة تقديم التنازلات؛فقد قبل عودة المفتشين بلا شرط ولا قيد ،ووافق على تفتيش القصور الرئاسية وقدم تقارير مفصلة بلغت آلاف الصفحات حول برامج تسليحه ،ثم وافق على استجواب العلماء العراقيين ذوي الصلة ببرامج التسليح العراقي داخل العراق ثم لم يمانع في استجوابهم خارج العراق، ودمر بنفسه صواريخه بعد أن كان يرفض ذلك ،ثم وافق -بل طلب- أن يأتي ضباط من المخابرات المركزية الأمريكية ليرشدوا فرق التفتيش على ما تعتقد أمريكا أنه أماكن يخبئ فيها العراق أسلحته ،ومع ذلك كانت النهاية ما هو معلوم ،ولقد قلت في مقال نشر منذ شهور : (( إني لست أظن صداماً من السذاجة بحيث يتوقع أن تنازلاته تلك ستوقف دوران عجلة الحرب ،ولكنه الخذلان الذي يأبى الله إلا أن يصيب به من خذله وعصاه )) .

وأنا اليوم أشد تمسكاً بهذا الذي قتلته ،بعد هذا الذي رأيناه من إصرار بوش وتابعه بلير على الحرب ،رغم المعارضة الدولية الواسعة التي كانت ترى أنه لا مبرر لتلك الحرب ؛لأن العراق قدم كل ما طلب منه ،وفرق التفتيش لم تجد أثراً للأسلحة الدمار الشامل التي كانوا يبحثون عنها .

ومن هنا فإننا نؤكد هنا على أمر هو عندنا نحن المسلمين من المسلمات، وهو أن الله تعالى لم يجعل طريقاً للعزة إلا في متابعة أمره، والسير على نهجه، وأبي - كما يقول الحسن البصري - إلا أن يذل من عصاه، وشعور المسلم بعزته واستعلائته بدينه هو من لوازم إيمانه حتى وهو في أخرج حالات الضعف والهزيمة، فحين قال الله تعالى للمسلمين: ((ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران: 139]، لم يكن ذلك في حال انتصارهم، بل كان في أعقاب هزيمتهم في غزوة أحد .

وعلى ذلك فإنه إن كان هناك من درس يجب أن يتعلمه حكام المسلمين اليوم، فهو أنهم ليسوا في مأمن من أن ينالهم ما نال صداماً، وعليهم أن لا يظنوا أن قبولهم بالضغوط الأمريكية، سيُرضي عنهم بوشاً وصحبه، وأن يعلموا أنه لا عاصم لهم إلا الرجوع إلى الله والتوبة الصادقة مما هم متلبسون به من المعاصي الجسام؛ وأولها التشريع من دون الله عز وجل، والتبعية لأعداء الله من اليهود والأمريكان، وأن يعلموا أن دعاة الإسلام هم أحرص الناس على خير بلادهم، وأكثرهم سعياً من أجل منفعتهم ومصلحتهم؛ إذ لا مصلحة له إلا في اتباع أمر الله والسير على نهجه .

أما سياسة تقديم التنازلات التي ألفتموها أيها الحكام، واستمررتم عليها ردحاً طويلاً من الزمن، فلعلكم اكتشفتم الآن تلك الحقيقة المرة: وهي أن التنازلات لا تؤدي إلا مزيد من طلب التنازلات، وتلك هي الحقيقة التي وعها رجلٌ كانوا يصفونه ومن معه بأنهم لا يفقهون كثيراً في أمور السياسة وإدارة الأزمات، أقصد الملا عمر الذي رفض في إباء وشموخ أن يسلم الأخ الشيخ أسامة بن لا دن لأعداء الله؛ لأنه فضلاً عن الموقف الشرعي القاضي بعدم جواز إسلام مسلمٍ للكافرين، فإنه قد فقه بحسه الإسلامي أن هذا التنازل لن يرضي عنه أعداء الله بل سيفتح شهيتهم لطلب المزيد، ففضّل أن يضحي بدولته ويظل طريداً شريداً على أن يقال لأبنائه يوماً: ((هؤلاء الذين أسلم أبوهم مسلماً للكافرين)).

فأما إن كان الرعب من الأمريكان لا يزال معششاً في قلوبكم، ونظرية التوسل لصاحبها حمد بن جاسم لا تزال مسيطرة على عقولكم، فإن من الخير لكم أن تتركوا مواقعكم، فلستم بأوصياء على الأمة التي أوضحت الأحداث الأخيرة أنها في وادٍ وأنكم في وادٍ آخر

،فإن لم يعجبكم قولي -وما أظنه يعجبكم- فأذنوا بمصير كمصير صدام بيد بوش أو بيد غيره  
،تعددت الأسباب والمصير واحد .